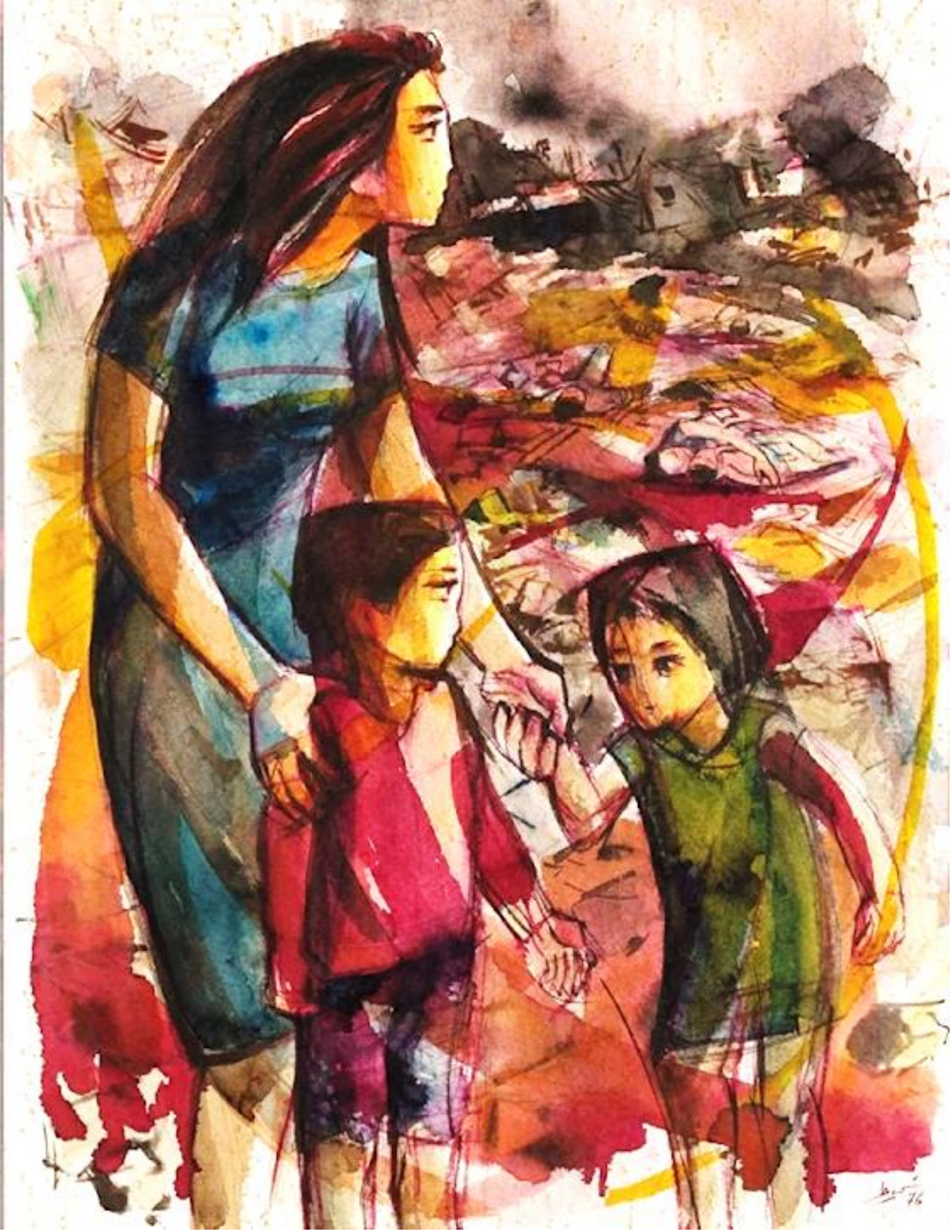

طريق تل الزعتر ... مقدمة محمود درويش وقصائد مظفر النواب وأحمد فؤاد نجم

* من مقدمة كتاب «طريق تل الزعتر ». هاني مندس. «مؤسسة الأبحاث الفلسطينية». 1977 – الصورة المرافقة من الكتاب أيضاً.

أيها النسيان إنك تليق بكل الأسماء ولكنك لن تكون تل الزعتر

يفلت منا تل الزعتر. وهذه اللغة للتفاصيل. كيف نحمي النص من الانفجار، وأسئلة أخرى. ويتكرر سوء التفاهم الذي لا ينتهي بين البطولة وعناصرها. البطل هو آخر من يعرف أنه بطل. وتل الزعتر لا يعرف تل الزعتر. ولا نعرف، في هذا الخضم، كيف نسمي. سنجتهد كالمعتاد، وأسئلة أخرى. ولكن الذي أتيح له أن يحدث الحدث لا يستطيع أن يشهد حدود دمه.

والذين ساروا في الحنين إلى ما هو آخر لن يروا في صفوف الكلمات المنهالة عليهم إلا مجموعات غريبة من الحشرات. بعضهم ذهب إلى الصمت الأخير، وبعضهم يذهب إلى الحياة بشروط محكمة. ويفلت منا تل الزعتر. وليس كل من جاء من هناك كان هناك. وسنقول الآن: تل الزعتر تراكمات بساطة، وثقافة علاقة بالمعجزة في أشد مقوماتها إلفة. تل الزعتر معجزة الماء. اختيار الذين يختارون والذين لا يختارون. استدراج البشر إلى سر التاريخ، وترويض الدهشة، فيصير كل شيء عظيم في متناول اليد. تل الزعتر شمول لا يكبر حبة العدس، وقارة من الفوارق بين الانفجار والانتحار. تل الزعتر أسماء كثيرة لا اسم لها. حالة ترهق حاملها وقاتلها. من يضبط هذه الصيغة بعد الآن، وأسئلة أخرى. وهو لذلك يفلت منا ومن ذاته. تل الزعتر أكبر من تل الزعتر.

وسنقول كلامًا كثيرًا. سيقال كل شيء ولا شيء. وستمر الأيام الأخرى على هذه المدينة - بيروت - التي لا يقيم فيها إلا الذين ماتوا والذين سيموتون بشظية طائشة أو باقتحام، ويعقبهم فرح. ومع ذلك، يظل حزنها من

الخارج أكبر. لا أدري إلى أين تقودني هذه الملاحظة، ولكنني ركبت كيس طحين ومشيت على الماء الليلي من قبرص إلى صيدا، لأقترب من انفجارات اللحظة التي حبلت بها مئات السنين من تاريخ أمة. على سطح السفينة شباب غادروا الكتب والسفر في طريقهم إلى بيروت ليدافعوا عن الحلم.

إن الذين يحلمون يشبهون بعضهم البعض ولهم وطن واحد، وفي بيروت أيام مشابهة: بالأمس تركيب المولدات والمحركات الكهربائية وإقامة الخطوط الحديدية في الصحراء/ بالأمس المحاضرة العلمية عن أصل الإنسان/ أما اليوم فالصراع/ بالأمس الإيمان بالقيمة المطلقة، للإغريقية / وانسدال الستار على موت البطل / بالأمس الصلاة للشمس في الغروب. أما اليوم فالصراع/ غدًا إعادة كشف الحب الرومانسي/ وتصوير الغربان وكل البهجة / في ظل «الحرية» السائد/ غدًا ساعة قائد العرض ولاعب الموسيقى/غداً للفتية الشعراء يتفجرون كالقنابل/ والتمشي على حافة البحيرة/ غدًا سباق الدراجات/ أما اليوم فالصراع. (اودن).

اليوم تل الزعتر. وتل الزعتر يستجمع بؤسه ويقف على قمة تفاصيله التي يخفيها، فيحفظ الذين يعرفون والذين لا يعرفون والذين لا يريدون أن يعرفوا. اليوم يسمّون شرق المتوسط تل الزعتر. في نيويورك ولندن وباريس وروما: سقط. لم يسقط. سيسقط. لن يسقط. اجتهادات صحافة، وأعداء، وأحلام جيل آخر... لم يعد ذلك مهمًّا. العالم كله تحول إلى انعكاس لوهج الزعتر. تل الزعتر يفلت من الاحتمالات. ينزلق من الصواب والخطأ. إنه يحول الكرة الأرضية إلى مخيم. تل الزعتر يستولي على الوقت.

لا رحمة. لا رحمة. قال لي صديق مشغول بملاحظة الظلم الأوروبي: تعبت منهم هؤلاء الذين لا يكفون عن سؤالي كيف تهجي اسمك. وتفاخر: هؤلاء لا يسألونك كيف تهجي تل الزعتر!

اخرس! فليس ذلك دليلًا على علاقة المتناقضات التي تحمل، فليس لأحد شأن في الألم الذي يصيب إنسانًا تشدّ ساقه اليمنى سيارة في اتجاه، وتشد ساقه اليسرى في اتجاه آخر. لا. ذلك عادي...

عادي لأنه من تل الزعتر. لا. لا. هل فكرت هذه الضحية بأن ما يرفعها إلى هذا الوجع يرفعها إلى الشهرة؟ هل تعيدها إلى الحياة أو إلى فلسطين شفقة جنتلمان إنجليزي؟ أيها العالم! إني أرفضك. وماذا تستطيعون أن تقدموا لنا! سؤال يواجهه فلسطيني على شاطئ الباسفيك من غاضب على القهر الاجتماعي. وأنت تجيب وتحاول أن تلم في صدرك أشلاء طفلة من تل الزعتر. وفي مجلس الأمن يرفع المندوب الأميركي يده ليقول في أدب: لا - لحق الفلسطينيين في عودة أو وطن...

كل السفن بطيئة. ولكن هذه السفينة السائرة على الماء الليلي من قبرص لا تجد صيدا. ولا ترى إلّا أضواء القراصنة القادمين من ميناء حيفا. يحتلون البحر أيضًا. حوالي مئة طالب غادروا سنواتهم الجامعية الأخيرة لينتموا إلى الحلم. منذ فترة طويلة لم نسمع هذه الأغاني. والسفينة لا تصل. يدفعونها بالهتاف والأناشيد. ولم يتدربوا على حمل السلاح. وعلى طريق تل الزعتر تقف المرأة إياها ذات السواد تختار أجمل الأطفال وتُذبح. تُذبح وتنتشي. تنتشي وتعود إلى البيت لتنام.

وعلى طريق آخر يقف العملاق العاجز ويختار العذراء. يضاجعها بسكين المطبخ الكبيرة، في هدوء في هدوء في هدوء. المشاهدون لا يتحركون. الصليب الأحمر. التضامن العربي. الله. الوطن. العائلة. النساء الأنيقات. ثم يمسح السكين بالبنطلون الأبيض. يزدان بعلامات فحولة السكين. العذراء ترشح دمًا. العملاق العاجز يرتاح.

كل السفن بطيئة. ولكن هذه السفينة أبطأ. كانوا مئة. سيعود منهم عشرون. تل الزعتر. أسماء كثيرة لا اسم لها. لا أحد يحب كالآخر. لا أحد يموت كالآخر. ثلاثة آلاف قتيل ليسوا رقمًا. سيرة البشرية تقتحم طريقة الفهم الشائعة. تنقض على التاريخ: إنك تكذب. لا يسمعهم التاريخ. يعطيهم رقمًا ولا يجمع الأشلاء. لا يرى كيف التقطوا دماءهم، قطرة قطرة، من بين عشرات السنين ومساحات الرمل. يضعهم في جملة واحدة: ثلاثة آلاف قتيل ماتوا في معركة. ولكن... لا أحد يموت كالآخر. والكتابة، كالتاريخ، تكذب. نحن هنا نرتكب أكثر من مخالفة.

نروي عنهم ونخفي بعض ما قالوا وما يقولون لننقذ اللحظة السياسية العابرة من الحرج. لا وصية لهم ولا قبر. رسونا على دمهم وكان الأرض. وفي أوج الكتابة كانوا يموتون بدلًا منّا. كانوا هم الذين يكتبون. وظلت الكتابة تكذب. وفي ساعات الدم الكبرى... في ساعاتهم نتساءل عن جدوى الكتابة، ونمضي في السؤال لنسأل عن جدوى الحياة ذاتها. نعم، سنشك في كل شيء، سنشك في الحياة من فرط ما ماتوا.

وسنسأل إلى متى نرسم المواعيد ونسقط؟ وسيعيدون أسئلتنا إلى التوازن. سيعيدون إلينا الحياة ذاتها. سنؤمن ونتابعهم. هؤلاء الذين لا جدران تكفي لصورهم، ولا اسم لأسمائهم ولا يكفي لتقليد دمهم. إنهم مرميون على الأرصفة والساحات والبذور. مرميون على الشمس وفي الظلال، مرميون في الحنان والظهيرة، مرميون في الذاكرة والنسيان. وما علينا إلّا أن نشهر الأقلام ونغمسها في الإيقاع الدموي الجاهز وفي الصور المجانية، فيصير الكذّاب فينا مخلصًا والركيك متينًا ويزدهر الأدب الفلسطيني على دماء تل الزعتر. وتنهال باقات الورد ويمنع النقد، لأننا نكتب عن تل الزعتر. إن بطولتهم شيء، والكلام عن هذه البطولة شيء آخَر. فلينصرف الذين يقيمون من أشلائهم متاريس إلى هواياتهم الحقيقية. وليتحدث تل الزعتر عن تل الزعتر.

لهم وحدهم حق الكلام. هذا الكلام لهم. وسنجد في كلامهم كتابة تنفي الكتابة. لنتعلم أبجدية الصدق والفن من هذه البساطة. إن لغتهم هي التي تغيّر. أشعر وأنا خارج من هذا النص أنني قادم لتوي إلى الحياة. أيّ كاتب يستطيع العودة إلى تقاليده بعد قراءة هذا النص الدمويّ، ولا يكون كاذبًا أو قاتلًا. سأتوقف عن الكتابة. سأتوقف عن الكتابة إلى أن يهدأ دمي وأجد كتابة أخرى.

إن تل الزعتر أخطر حادث بطولة في تاريخ العرب. وأسأل نفسي كثيرًا: هل يكون الوطن وحشيًّا إلى هذا الحد؟ نعم، وقبيح أيضًا ومقدس حين يكون رئة الحياة، لم يقتل وطن أبناءه كما يفعل الوطن الفلسطيني، ولم يبدع شغيلة وطنًا كهذا الحلم الذي يغيّر عصرًا، وحين يكون الحصار هو الحصار الأخير وحين يكون الخندق هو الخندق الأخير تصبح مساحة الصفيح الصغيرة هي الكون، ويكون سقوط هذه البقعة سقوط الكرة الأرضية في فراغ لا ينتهي. من علّمهم ذلك؟ القيد والثورة. ومن أيضًا؟

وجدوا أنفسهم يموتون فماتوا، أكثر حرية من الحرية ذاتها حين انصهروا في الموت وهم يعرفون أن موتهم ليس شعرًا كما لم تكن الحياة شعرًا. لا جمال لهذا الموت... لا جمال لا جمال إلا هم. كانوا يدافعون عن كوب الماء وعن قابلية الجرح للشفاء، ولا يهمنا أن نعرف إن كانوا يعرفون أنهم كانوا يدافعون عن القارة العربية المهددة بالتخلي عن أحلامها. لا شروط للبطولة إلا شروطها ذاتها حين ترمينا الحياة إلى لحظة لا نستطيع فيها إلا أن نبدع البطولة دون أن ندري.

كانوا يحولون الملايين المنتشرة على أرض خائفة إلى قبضة يد تتحفز لتغيير مسار المرحلة. كانوا يعطون للفعل الفلسطيني معناه العلني المتكامل الممتد إلى كل الحدود وميزان المدفوعات والنفط والطبقات والشعر والأمية والكبت الجنسي والخيانة. كانوا يفضحون السر الفلسطيني ويزيلون عن البيان الفلسطيني غشاء المجاملة. وكانوا يقولون للأمة إنها ليست هي المهزومة، وإن كل موقع فيها يحمل شروط تل الزعتر. ولذلك، قاتلوا حتى جرعة الماء الأخيرة وبرزت وجوه أعدائهم الكثيرة.

خرجوا من اللحظة الرائجة إلى زمن آخر. وأخرجوا الوطن الفلسطيني من حواجز البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الميت ونهر الأردن والصحراء.

وحين خرجوا إلينا من بوابات جراحهم الواسعة لم ندخل معهم في عناق متكافئ كان المستقبل مرميًا على الطرقات. وكنا نغطي وجوهنا بأفراح سرية. كان السكون يغطي المدينة، وكانت السفينة البطيئة تفرغ أكياس الطحين وتحمل الجرحى وبقايا الطلبة والأعراس... ندخل مرة أخرى في وعي البدايات. سنواصل الرحلة

ونصدق أحلامنا. تل الزعتر. سقط. لم يسقط. لن يسقط. كانت قوافل الجراح تصب في المدينة الرياضية وتصفيقنا، وتلوّن فلسطين والمدن العربية الخائفة.

وكانت ظواهر الأشياء تعود إلى سياقها الطبيعي: فصل آخر ينتهي وتنزل البطولة إلى تفاصيل أخرى. لا، لن يسدل الستار على نهاية بطل، لأنه يزرع الأرض الآن بدايات، وأسئلة أخرى. يرحل تل الزعتر عن الأرض ليدخل المحيط الكبير في دورة التدريب. ويعرف الثائر أنه لن يستطيع أن يكون إلا ثائرًا. ولأن فلسطين ليست زانية، ولأنها لا تقيم في حجرة، فلن تكون حبيبة الجميع. إنها صراع الجميع. ويصير اسم صغير مثل تل الزعتر مفترق طرق لكل الجهات. ومن طريق تل الزعتر من طريق الثورة نصل إلى فلسطين وأخواتها. والطريق الآخر يؤدي إلى طريق آخر... إلى سيطرة الكاز على الدم. أيها النسيان! إنك تليق بكل الأسماء، ولكنك لن تكون... تل الزعتر!

*مظفر النواب. قصيدة «تل الزعتر»، الأعمال الشعرية الكاملة، «دار قنبر»، لندن، 1996

سمعنا الصلية ثانية

نال الله من الأرض

وأمعاء الأطفال على كفيه الضارعتين

بكى في الليل بكاء خشناً وتوسل بالناس

يعودون إلى تل الزعتر

فالله كذلك من عاصمة الفقراء

وهؤلاء الجيران تعوّدَهم

وتعوّدَ أن تنشر بين الخيمة والخيمة في الصبح ملابسهم

كان يلمّ ملابسهم أحياناً

لا تقتربوا... لا تقتربوا

لحم الأطفال سيلعب والغميضة شاملة

هذي اللعبة لا يقطعها أحد أبداً

خصيان الردة قد كبرت

أسمعتم.. أسمعتم؟..

أسمعُ صوت الشعب الغاضب في لحمي

لا تقتربوا.. لا تقتربوا.. لا تقتربوا.

*أحمد فؤاد نجم، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة،2008

يا حكاية كل الناس

من قلب الناس للناس

تصحي على لسان الناس

وتبات في ضمير الناس

يا أطهر جرح

وأشرف جرح

وأوجع جرح ف قلب الناس

يا تل الزعتر